اللغة كوسيط للخبرة
الهرمنويطيقية هانس جورج غادامر

ترجمة: جدوع تامر

نقول عادة إننا "نجرى" حديثا، لكن ما نجهله أن الحديث كلما ازدادت أصالته، ضؤل مقدار أن يكون إجراؤه طوع إرادتنا نحن المشتركين فيه. فالحديث الأصيل إذا ليس أبدا ما أردنا أن نجريه. من الأصح على العموم أن نقول، إننا ندخل في حديث، هذا إن لم يكن الأولى بنا أن نقول، إننا نتورط في حديث. إذ ربما كان في كيفية صدور كلمة عن أخرى، واتخاذ الحديث ثناياه، وإيجاد مجراه ومخرجه، شيء من التوجيه، لكن هذا التوجيه هو من النوع الذي يوجه فيه الشركاء في الحديث أكثر مما هم يوجهون. فلا أحد يعرف مسبقا ما الذي "سينبثقط" عن الحديث. إذ إن التفاهم أو فشله يشبه حدثا اعترانا. هكذا يمكننا أن نقول، إن شيئا ما كان حديثا جيدا أو أن نقول، إنه لم يكن موفقا، هذا كله يوضح أن الحديث له روحه الخاص، وأن اللغة التي فيها، تحمل في ذاتها حقيقتها الخاصة، أي أنها "تزيح الستار" عن شيء ما وتخرج ما هو جار.

سبق أن رأينا لدى تحليل الهرمنيوطيقية الرومانسية أن الفهم لا يرسو على قاعدة الحلول في الآخر، أي على أن يتماهى الواحد مباشرة. إن فهم ما يقوله أحدهم يعنى، كما رأينا، التفاهم في الشيء، لا الحلول في الآخر واستشعار ما عاشه. وقد أبرزنا أن اختبار المعنى الذي يحصل في الفهم على هذه الصورة إنما يتضمن دائما الاستخدام. الآن ننتبه إلى أن هذه العملية كلها عملية لغوية. وليس من قبيل العبث أن إشكالية الفهم الفعلية ومحاولة إتقانه فنيا –وهذا هو موضوع الهرمنيوطيقا– تنتمي تقليديا إلى حقلى النحو والبلاغة. فاللغة هي الوسط الذي يتم فيه تفاهم ا لشركاء والتوافق بينهم على الشيء.

إن وعي الشروط التي يخضع لها كل تفاهم إنما يتم على الأكثر في حالات التفاهم المشوشة والصعبة. هكذا تصبح العملية اللغوية التي يكون فيها حديث في لغتين غربيتين، إحداها عن الأخرى، بواسطة الترجمة والنقل ممكنا، عملية موضحة بشكل خاص. على المترجم هنا أن ينتقل المعنى الذي يجب فهمه إلى السياق الذي يحيا فيه الشريك في الحديث. هذا لا يعني بالطبع أن يجوز له تحريف المعنى الذي عناه الاخر. فالمعنى ينبغي بالأحرى أن يحفظ، لكن بما أنه ينبغي أن يفهم في عالم لغة جديد، فهو يجب أن يظهر فيه بطريقة جديدة. كل

ترجمة هي من هذا المنطلق تفسير، لا بل يمكن القول، إنها التفسير الذي منحه المترجم للكلمة.

مثال الترجمة يمنحنا الوعي بأن اللغة هي وسيلة التفاهم، وهذا الوعي يجب إنتاجه عبر توسط واضح. نشاط اصطناعي كهذا ليس بالفعل الوضع الطبيعي للحديث. وليست الترجمة الوضع الطبيعي لتصرفنا تجاه لغة غربية، بل إن الاعتماد على الترجمة هو بالأحرى كأن يضع الشركاء أوصياء على أنفسهم. حين تحتاج إلى الترجمة، يجب علينا تحمل المسافة الموجودة بين روح النص الحرفي الأصيل وروح الإعادة، هذه المسافة التي لا يمكن التغلب عليها بالكامل أبدا. هكذا لا يحصل التفاهم في حالات كهذه فعلا بين الشركاء في الحديث، بل بين المترجمين شفويا الذي يستطيعون أن يتلاقوا فعلا في عالم تفاهم مشترك. (من المعروف أنه ما من شيء أصعب من حوار في لغتين أجنبيتين، يستعمل فيه أحد الطرفين الواحدة والطرف الآخر الأخرى، إذ إن كلاً منهما يفهم اللغة الأخرى، لكنه لا يتكلمها· حينئذ تسعى إحدى اللغتين، كما لو كان ذلك تحت تأثير قوة من فوق، أن تفرض نفسها أمام اللغة الأخرى كوسيلة للتفاهم).

حيث يكون التفاهم، يكون الحديث، لا الترجمة، إن فهم لغة أجنبية، هو فهم حقيقي حين لا يتطلب ترجمتها إلى اللغة الأم. ما من حاجة للترجمة، لا بل إن كل ترجمة تبدو مستحيلة، حين يتقن الواحد إحدى اللغات فعلا· فهم اللغة بحد ذاته ليس فهما حقيقيا ولا يتضمن أية عملية تفسير، بل هو من النشاطات الأساسية للحياة. فالمرء يفهم اللغة بأن يحيا فيها، هذه الجملة لا تنطبق فقط على اللغات الحية، بل الميتة منها أيضا. فالمشكلة الهرمنيوطيقية إذن ليست مشكلة الإتقان الصحيح للغة، بل هي مشكلة التفاهم الحقيقي على الشيء، هذا التفاهم الذي يحدث في الوسيط، الذي هو اللغة. كل لغة يمكن تعلمها بشكل يسمح بأن يتضمن استعمالها التام أن يستغنى المرء عن الترجمة من لغته الأم أو إليها وأن تكون لغة أفكاره هي اللغة الأجنبية. هذا الإتقان للغة شرط مسبق للتفاهم في الحديث. فكل حديث يشترط بالطبع أن يتكلم المتحدثون اللغة نفسها. ولا يصبح الفهم والتفاهم مسألة إلا حيث يمكن التفاهم لغويا بواسطة التخاطب. الاعتماد على ترجمة المترجم هو وضع نادر، يضاعف العملية الهرمنيوطيقية، أعني الحديث: فهو حديث المترجم مع الجهة المقابلة وحديثي مع المترجم.

الحديث عملية تفاهم. هكذا يتضمن كل حديث أصيل أن يتجاوب المرء مع الآخر، أن يقبل آراءه، وأن يحل فيه إلى حد بعيد يسمح له بأن يفهم ما يقول، لا أن يسعى إلى فهم شخصيته. ما ينبغي استيعابه هو الحق الموضوعي الذي يحوزه رأيه، ليمكننا أن نتفق على الشيء. لا ننسب رأيه إليه كشخص، بل إلى ما نعنيه ونظنه. حيث ننظر إلى الأخر فعلا كذات فردية، كما هو الحال في الحديث العلاجي أو في استجواب المتهم، إذ لا يتوفر وضع التفاهم أبدا.

هذا كله، ما يميز وضع التفاهم في الحديث، يتحول فعلا إلى ما هو هرمينوطيقي، حين تكون المسألة مسألة فهم نصوص. نبدأ مجددا بقضية خاصة هي قضية الترجمة من لغة أجنبية. لا يستطيع أحد في هذا الصدد أن يشك بأن ترجمة نص ما، مهما كان المترجم معتادا على المؤلف ومتفاعلا معه، ليست مجرد بعث للعملية النفسية الأصيلة التي لازمت الكتابة، بل هي تقليد للنص، يتم من خلال فهم ما يقوله. ولا يستطيع أحد أن يشك في أن المسألة هنا مسألة تأويل، وليست مشاركة في الإنجاز وحسب. اللغة الأخرى تلقى ضوءا جديدا للقارئ على النص. وليس بمقدور الأمانة التي تطلب من الترجمة أن تزيل الفرق الأساسي الموجود بين اللغات. حتى لو أردنا أن نبقى أمناء، علينا اتخاذ قرارات مزعجة. إذ شئنا أن تبرز في ترجمتنا معلما من معالم الأصل يهمنا، ما استطعنا ذلك، إلا إذا تركنا معالم أخرى في النص نفسه تتراجع، أو ضغطناها تماما. وهذا هو بالضبط التصرف الذي نعرفه كتأويل. الترجمة هي ككل تأويل زيادة في الإيضاح. من يترجم، يلتزم بالقيام بزيادة الإيضاح هذه. جلى أنه لا يجوز له أن يدع شيئا غير واضح، أن يترك ما هو غامض بالنسبة إليه. يجب عليه أن يكون صريح الموقف. ثمة بالطبع أوضاع متطرفة يتضمن فيها النص أصلي (وبالنسبة لـ"القارئ الأصلي") ما هو فعلا غير واضح. لكن حالات متطرفة هرمنيوطيقية مثل هذه تبين الوضع القسرى الذي يوجد فيه المترجم دائما. فهو يجب أن يقول بوضوح كيف يفهم. بقاؤه في وضع لا يمكنه من التعبير فعلا عن كل أبعاد نصه يعنى بالنسبة إليه استغناء عنه. كل ترجمة تتولى مهمتها بجدية هي أكثر وضوحا وانبساطا من الأصل. حتى ولو كانت تقليدا كاملا، يجب أن ينقصها شيء من النبرات التي تتواجد أيضا في النص الأصلي. (في حالات نادرة من الخلق المقلد الرائع قد تعوض هذه الخسارة أو تؤدى إلى ربح جديد، مثلا "أزهار الشر" لبودلير التي ترجمها إلى الألمانية شتيفان غيورغه).

كثيرا ما يعنى المترجم بألم المسافة الضرورية التي تفصله عن الأصل. تعامله مع النص فيه شيء من الجهد الذي يبذل من أجل التفاهم في الحديث، الفرق الوحيد هو أن الوضع هنا هو وضع تفاهم مجهد بشكل خاص، يدرك فيه المرء أن المسافة القائمة بين رأيه والرأى المقابل لا يمكن في النهاية إزالتها. وكما الحال في الحديث، حيث توجد فوارق كهذه لا يمكن إزالتها، قد ينجح الوصول إلى حل وسط في أخذ الكلام ورده، هكذا يفتش المترجم أيضا وسط إعمال الفكر وتقليب الآراء عن الحل الأفضل، الذي لا يمكن أن يكون إلا حلا وسطا.

وكما أن المرء في الحديث يحل في ا لآخر من أجل هذا الغرض، ليفهم موقعه، هكذا يحاول المترجم أيضا أن يحل في مؤلفه تماما. لكن التفاهم في الحديث لا يضمن بواسطة ذلك، ولا يعنى حلول كهذا بالنسبة للمترجم نجاح التقليد. من الواضح أن البنى متماثلة تماما. فالتفاهم في الحديث يتضمن استعداد الشركاء للتفاهم ومحاولتهم أن يدعوا الغريب والمضاد يسرى لديهم. حين يتم ذلك بالتبادل، ويتأمل كل من المشاركين في الحديث في الأسباب المقابلة إذ هو يتمسك في الوقت نفسه بأسبابه الخاصة، يمكن الوصول إلى لغة مشتركة وقول مشترك،

وذلك في تناقل لوجهات النظر غير ملاحظ وغير عشوائي (نسميه تبادل آراء). كذلك يجب على المترجم أن يتمسك بحق لغته الأم التي يترجم إليها وأن يدع العنصر الغريب، وربما المضاد، في النص وطريقة تعبيره تسرى لديه. ربما كان هذا الوصف لعمل المترجم مقتضبا جدا. حتى في أوضاع خاصة كهذه، ينبغي فيها النقل من لغة إلى أخرى. يصعب الفصل بين الشيء واللغة. فقط المترجم الذي يعبر عن الشيء الذي يريه إياه النص، أي الذي يجد لغة لا تلائم لغته وحسب، بل أيضا لغة الأصل، سيمكنه أن يقلد النص فعلا. إن وضع المترجم هو في الأساس وضع المفسر نفسه.

إن مثال المترجم، الذي يتحتم عليه أن يتغلب على الفجوة القائمة بين اللغات، يوضح بتميز العلاقة المتبادلة التي تجرى بين المفسر والنص، وتتوافق وتبادل التفاهم في الحديث. إذ إن كل مترجم مفسر. وكون اللغة لغة أجنبية لا يعنى إلا حالة متصاعدة من الصعوبة الهرمنيوطيقية، أي من الغربة والتغلب على الغربة. كل "الأشياء"، التي يتحتم على الهرمنيوطيقا التقليدية أن تتعامل معها، هي غريبة حقا في هذا المعنى نفسه المحدد بوضوح. ليست مهمة التقليد التي يقوم بها المترجم مهمة نوعية، بل هي تختلف فقط تدرجا عن المهمة الهرمنيوطيقية العامة ا لتي يفرضها كل نص. هذا لا يعنى بالتأكيد أن الوضع الهرمنيوطيقية إزاء النصوص يماثل تماما الوضع القائم بين شخصين يتحادثان. فما تحمله النصوص إن هي إلا تلفظات حياة مثبتة دائما ينبغي أن تفهم، ما يعنى أن النص، وهو الشريك الآخر في الحديث الهرمينوطيقي، لا يتكلم إلا من خلال أحد الشريكين، ألا وهو المفسر. فمن خلاله تتحول الإشارات الخطية رجوعا إلى معنى. مع ذلك، إن الشيء نفسه الذي يتكلم عنه النص، يعبر بدوره عن نفسه بواسطة إعادة التحول هذه الحاصلة في الفهم. هذا يشبه ما يحدث في الحديث الفعلي، حيث الشيء المشترك هو ما يجمع بين الشركاء، أي بين النص والمفسر في هذا السياق، وكما أن المترجم كمترجم شفوي يمكن التفاهم في الحديث فقط إذا اشترك في الشيء المتداول، هكذا يتحتم على التفسير ضرورة أن يشترك في معنى النص.

يحق إذن الكلام على حديث هرمنيوطيقي (حديث بين المفسر والنص). لكن ما ينتج عن ذلك هو أن الحديث الهرمنيوطيقي يجب أن يصنع لنفسه لغة مشتركة، كما هو الحال في الحديث الفعلي، وإن صنع اللغة هذا، كما في الحديث أيضا، ليس تحضير أداة من أجل أغراض التفاهم، بل هو إنجاز الفهم والتفاهم. بين المتشركين في هذا "الحديث" يحصل تواصل كما بين شخصين. وهذا التواصل هو أكثر من مجرد تأقلم. إن النص يعبر عن شيء، لكن هذا الفعل هو في النهاية إنجاز المفسر، كلاهما يشتركان في هذا الشيء.

إن ما يعنيه نص لا يفرض وجهة نظر ثابتة يجرى التمسك بها بعناد، كما لا يثير النص تساؤلا أحاديا لدى الملتقى، أي كيف توصل الآخر (الكاتب) إلى هذا الرأي الغريب. بهذا المعنى، ليست مسألة الفهم بالتأكيد مسألة "فهم تاريخي" يعيد تركيب نشوء النص. ما نعنيه هو بالأحرى فهم النص نفسه. وهذا يعنى أن أفكار المفسر الخاصة تدخل دائما في بعث

مضمون النص. فيما يتعلق بذلك يلعب أفق المفسر الخاص دورا محددا، ولكن حتى هو لا يشبه موقفا خاصا، يتمسك به المرء أو يفرضه، بل بالأحرى رأيا وإمكانية، تذكر وتعرض للخطر وتسهم في الاكتساب الفعلي لما يقال في النص. سبق لنا أن وصفنا ذلك بأنه انصهار آفاق. ونحن نتعرف منه الآن شكل إنجاز الحديث، الذي يعبر فيه شيء عن نفسه، وهو شيء لا يخصني وحدي، ولا يخص مؤلفي فقط، بل هو شيء مشترك بيننا. إننا ندين للرومانسية الألمانية بمعرفتنا، بأن الكيان اللغوي للحديث هو العامل الحاسم في الفهم، فهي علمتنا أن الفهم والتأويل هما في نهاية المطاف أمر واحد.